ليس الخبز .... وحده

« ... مكتوب أن ليس بالخبز يحيا
الإنسان ، بل بكل كلمة من الله»
(مت ٤ : ٤ ، لو ٤ : ٤) .

نحن الآن في أخطر قضية من قضايا التدّين ، وعليها يترتّب أن يكون دين ، أو لا دين ...

هل للكيان الإنساني مطالب غير مطالبه (البيولوجية) ، وهل للنفس الإنسانية آفاق يصح أن تشغلها عدا ما يحفظ الذات ويحفظ النوع ؟؟

للأديان السماوية كلها ردّ واحد على هذه الدعوى : ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الجاثية : ٢٤ - ٢٧].

هذا الخطّ الأساسي في العقيدة الدينية ، تناوله المسيح في حواره مع إبليس :

«أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس ، وكان يُقتَادُ بالروح في البريّة أربعين يوماً - يُجرَّب من إبليس ولم يأكل شيئاً في تلك الأيام ، ولما تمّت جاع أخيراً . وقال له إبليس : إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً ، فأجابه يسوع قائلاً : **مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكلّ كلمة من الله**»

(لو ٤ : ١-٤ ، أيضاً مت ٤ : ١-٤) .

وحِيَلُ الشيطان الخائبة مع المرسلين متعدّدة في سيرهم : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى

ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [الحج : ٥٢ - ٥٤] .

هذا الركن الركين والأساس المتين في كل دين ، يسميّه العقّاد (اختيار القبلة). «ويمكن أن يقال في وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى ، حسب النظرة التي ينظر بها القارئ إلى الأناجيل .. ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله ، إذا وصفناها بأنّها (تغيير وجهة) وافتتاح قبله ...

ولا سبيل إلى الجمع بين الوجهتين ، ولا إلى التردّد بين القبلتين ، (فلن يخدم أحد سيدين) ...

قبلة الروح ، أو قبلة الجسد ...

قبلة الله ، أو قبلة (مامون) - إله المادة والمال ...

معبد الضمير ، أو معبد الصخر والخشب ...

هنا أو هناك ... فالمهم هو الاتجاه أين يكون ، وإلى أي أمد يدوم ، وكل ما يلي ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتّسع أو تضيق ، وتسرع أو تتريّث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولابدّ من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولابدّ من خيرة بين السيدين »[1].

وتلك هي قضية اليوم الفاصلة : تديّن أو إلحاد ...

---

١ - العقاد : عبقرية المسيح ص ١٠٦ ، وبالهامش: (مآمون) كلمة آرامية ترمز إلى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية ، وتطلق الآن في اللغات الأوربية على إله المادة والمال . راجع أيضاً فصل : اختيار القبلة.

كتب أحد دعاة (المجيئيين السبتيين) Adventist : «إنّ كثيرين من بين موجهي هذا الجيل أصبحوا يشكُّون في وجود إله يهتم بخليقة تافهة نظيرنا ، وكثيرين يجاهرون بأن الكتاب المقدس وأدب شكسبير كليهما في منزلة واحدة من حيث التنزيل والإلهام ، وأن ما دوّنه موسى من الخلق لا يزيد عن كونه قصصاً وأساطير .. ومنذ سنوات قلائل صرّح أحد الكتاب في مجلة دينية قوية النفوذ واسعة الانتشار فقال : منذ جيل مضى كان جلّ همّ علماء اللاهوت المسيحي يتركّز في الدفاع عن سفر التكوين ضد التعاليم الداروينية ، واليوم نراهم يدافعون عن عقيدة وجود الله - **أيًّا كان شكلها** - ضد الإلحاد والمادية ، وضد الفلسفة الوضعية Postitivism التي تقول بوجوب تأليه الإنسان ... وصرح البروفسور ج. ب. سمث في كتابه (التفكير المسيحي المعاصر) الذي ألّفه أثناء قيامه بتدريس اللاهوت المسيحي بكلية الدين بجامعة شيكاغو: إن قصة الخلق المعلنة في الكتب المقدّسة تصف هذا الوجود باعتبار أنه قد أوفى على الغاية من حيث اكتمال صنعه وإتقانه ؛ وتمام توازنه وثبات كيانه - الأمر الذي يجعل هذه القصة تبدو في الواقع غير مقنعة لأولئك الذين يفكرون بمقتضى قواعد علم النشوء والتطور (ص١٧٠ من الكتاب) ... وكذلك جاء في خطاب مشهور ألقاه العالم أينشتاين صاحب نظرية النسبية على حفل كبير من رجال العلم والفلسفة والدين - إذ قال بلغة ساخرة: على معلمي الدين أن يجاهروا في جرأة وشجاعة بنبذ المعتقد الخامس بوجود الخالق! ... وصرح رئيس الالتئام الخامس لمجمع الكونجريجشنال الدولي في خطاب موضوعه (استرداد إحساساً بوجود الله) : صار رجال العلم الطبيعي ويؤازرهم لفيف من رجال علم النفس الحديث يغضّون من شأن الاعتقاد الخاص بوجود الله سبحانه ، وأصبحوا ينتقصون من قدره حتى جعلوه في عداد التصميمات التي يبتكرها العقل ويختطُّها الإنسان وفقاً لميله وهواه !! وقد طفقت تعاليم أولئك القوم تتسرّب بواسطة المجلات والروايات على عقول أبناء هذا الجيل من رجال

وسيدات ، بل لقد أصبحت هذه التعاليم الهدامة تخلق الجو الذي يحيط بنا وتتحكَّم في تكييف عقولنا وتوجيه أفكارنا إلى الحدِّ الذي انتهى بنا إلى إنكار حقيقة الخالق عز وجل ، حتى ليصدق علينا قول بولس الرسول : (وبينما يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء ... واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق ، وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض) »[1].

تلك هي القضية التي على كل أتباع دين سماوي - من مسيحيين ومسلمين - أن يتصدُّوا لمعالجتها ، وهي قضية عناصرها واحدة عند الجميع .

ومن ثمّ لا حرج على من يسير (مع المسيح) أن يدلل عليها بكتابات المسلمين ، ولا حرج على من ينافح عن الإسلام أن ينتصر للتدين بدراسات اللاهوتيين والفلاسفة غير المسلمين ، وقد أوضح هذا بجلاء الدكتور ميلربروز Millter Burrowo الأستاذ بجامعة ييل حيث قال : «إنّ المعضلات التي تتضمنها محاولة إيجاد ملاءمة بين الدين والعلم تتشابه في الإسلام والمسيحية . ومع أن الحواجز القومية قد تفصل بين العلماء وبعض ، فالعلم نفسه لايقبل تجزئةً مثل هذه ، إذ أن دنيا العلم واحدة ، وإذا كانت دياناتنا مختلفة فالله واحد »[2].

والأستاذ العقّاد من خير من انتصر لقضية التدين في الفكر العربي المعاصر ، وهو يقول في افتتاح أحد كتبه :

«**الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية** ، ولم يكن الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية لأنّه مصلحة وطنية أو حاجة نوعية ، لأنّ الدين قد وُجد قبل وجود الأوطان ، ولأنّ الحاجة النوعية (بيولوجية) تتحقّق أغراضها في

١- فرنسيس دانيكول: إيماني، حجة وأسانيده - ترجمة جرجس سليمان ص ١٠٣ ، ١١٤-١١٧.

٢- بروز: Some suggestions concerning the relations between religion and science in Islam - بحث في مؤتمر الثقافة الإسلامية في (برنستون) الترجمة العربية ص٤٢.

كل زمن وتتوافر أسبابها في كل حالة ، ولايزال الإنسان بعد تحقق أغراضها وتوافر وسائلها في حاجة إلى الدين . وغرائز الإنسان النوعية واحدة في كل فرد من أفراد النوع وكل سلالة من سلالاته ، ولكنه في الدين يختلف أكبر اختلاف لأنه يتجه من الدين إلى غاية لا تنحصر في النوع ولا تتوقّف على غرائزه دون غيرها وليس الغرض منها حفظ النوع وكفى ، بل تعزيز مكانه في هذا الكون أو في هذه الحياة . فالإنسان يتعلّق من النوع بالحياة ، ولكنّه يتعلّق من الدين بمعنى الحياة .

ولن يوجد إنسان ليس له نوع أو غريزة نوع أو آداب نوع - لأنّ وشيجة النوع ليست مما ينفصل عنه باختياره ، ولكن قد يوجد إنسان يفوته معنى الحياة ، وقد يوجد إنسان يفهم معنى الحياة على أنّه إعراض عن الحياة الفردية ، وعن الحياة النوعية ، وتوجُّه إلى ضرب آخر من الحياة .

وقد يتحوّل الإنسان من عقيدة إلى عقيدة ، فلا يقال إذن إنّه تحوّل من غريزة نوعية إلى غريزة نوعية - لأن هذه الغريزة لا تقبل التحوّل ولا التحويل ، بل يُقال إذن أنّه آمن بعلاقة جديدة بين الخلائق جميعاً وبين الحياة أو مصدر الحياة . والإنسان إذا طلب من الدين الحياة الأبدية ، فهو لا يطلب ذلك لأنه فرد من أفراد نوع ، فإنّ النوع قد يبقى ألوف السنين وقد يُقدِّرُ الإنسان أنّه مكفول البقاء بغير انتهاء ، ثم لا يُغنيه كل ذلك عن طلب الحياة الأبدية لأنه يريد لحياته معنى لا يزول ، ويريد أن يتصل بحياة الكون كله في أوسع مداه ...

وليس مقياس العقيدة الصالحة مقياس الدروس العلمية والحيل الصناعية ، وإنّما حسب العقيدة الصالحة من صلاح أنّها تنهض بالعقل والقريحة ولا تصدّهما عن سبيل العلم والصناعة ، ولا تحول بين معتقديها وبين التقدم والحضارة وأطوار الاجتماع .

وينبغي أن يلاحظ في هذا الصلاح أنّ الجماعات البشرية لا تعيش عمر إنسان واحد ولاتنحصر في طبقة واحدة . فالعقيدة التي تصلح لعشرة أجيال يشترك فيها عشرة أجيال يختلفون في كثير من الأحوال والعادات ، والعقيدة التي يدين بها الملايين يشترك فيها الخاصة والعامة والأعلياء والأدنياء ، ولا تُصاغ منها نسخة مستقلة لكل طبقة أو لكل فريق . **فالذي يُطلب من العقيدة الصالحة أن تصلح لهؤلاء مجتمعين** ، وأن تصلح لأعمار بعد أعمار ، لأنها ليس مما يُخلع تارة بعد تارة ، ولا مما يُستبدل ببرامج السنوات ونصوص الدساتير !! ...

ومهما يكن من رأي العلمـاء والفلاسفة في الإيمان بالله ، فهم لا يجهلون - ولا يستطيعون أن يجهلوا - **أن الإيمان ضرورة كونية لا تخلقها مشيئة أحد من الآحاد** ، ولو كان في قدرة الرسل والأنبياء ! فإذا أجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم في الجنس والزمن والموطن والمصلحة ، فليس هذا عمل فرد ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضاً واتفاقاً من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنّه باعث من صميم قُوى الكون لا يفلح الرسل والأنبياء في نشر دعوته ما لم يكن في تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق وسرّ التكوين ...!!

إنهم يتَّخذون من عقائد بعض العامة أو عقائد بعض الخاصة دليلاً على أنها أمور لا تصدر من عند الله الذي يصفه أصحاب الأديان بالعلم والحكمة والقدرة على الهداية ، فإذا كان هذا هو المبطل للوحي الإلهي فكيف يثبت الوحي الإلهي في قياس أولئك الفلاسفة أو العلماء ؟؟ أيثبت بعقيدة يدين بها العامة كما يدين بها الخاصة ، وتطابق الدروس العلمية اليوم ، كما تطابقها عندما تنقض نفسها بكشف جديد ؟ أيثبت بعقيدة تدخل المعمل الصناعي أو العلمي كل سنة أو كل بضع سنوات للفحص والامتحان ؟ أيثبت بعقيدة ليست بعقيدة ، ولكنها مجموعة من الأزياء الموسمية التي يُغيِّرها الإنسان تارة بعد تارة ولا يمزجها ببواطن الضمير ؟

كلا ، فإن الوحي الإلهي متى ثبت لا يثبت على النحو الذي تخيّلوه ، بل على النحو الذي عهدنا عليه الأديان ، مع اختلاف العقول واختلاف الأجيال واختلاف المعلومات . عقيدة هي عقيدة ، وإيمان هو إيمان ، وبعد ذلك موافقة لدواعي الحياة ومطالب الفكر وخلجات الشعور . وهكذا تصحّ العقيدة - إن صحّت على الإطلاق ، وهكذا يكون الإيمان - إن كان إيمانا »[1].

والذين يريدون أن يستغنوا عن التديُّن ، لا يلبثون أن يُحِلُّوا محلّ الدين شيئا آخر يدينون به ويتعصّبون له ليسد الفراغ ويطفئ الظمأ ... ففي النفس غريزة الخضوع ، فإن لم يخضع الإنسان (لقوة عليا محايدة) لا تستغلّ فيه هذا الخضوع ، فسيخضع للقُوى التي تعصف بها الشهوات والنزوات ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف : ٣٩] ...

قوّة الله هي القوّة التي لاتتجبّر لكثرة الطائعين ، ولا تهون بمعصية العاصين ، لأنّ صاحبها غنيّ عن العالمين : ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝﴾ [الذاريات : ٥٧ ، ٥٨] .

قوة لا تحابي الأولياء ، ولا تتحامل على المخالفين ، لأنّ صاحبها فوق هؤلاء وهؤلاء ، وربّ هؤلاء وهؤلاء ، والرحمن الرحيم على هؤلاء وهؤلاء ....

قوة الله هي القوّة التي إذا اجتمع عليها الناس اتجهت طاقتهم النفسية في الحب والبغض إلى وجهة تُهْدِهِدُ من شحناء الانقسام والعصبية وصراع العدوان والبغي ، فلا يُبْطَنُ المقت ولا تُعلن الحرب إلا على الشيطان الرجيم : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ....

---

١ - العقاد : الفلسفة القرآنية - المقدمة.

قوّة الله هي التي تجمع الناس عليها ، لتخطَّ لهم طريقهم من علٍ ، بعيداً عن أهواء التحيّز للدم أو الأرض أو الطائفة أو الرأي : ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ .

هذه هي قوة الله التي أراد قوم أن يستبعدوها عن مجال النفس والضمير ، فهل بقيت النفس وبقى الضمير بعدها بغير إله؟؟

ما أصدق جوستاف لوبون حيث يقول في (روح الجماعات) : «ومما لا طائل تحته أن تعيد القول بأنه لابد للجماعات من دين ، ولا تستقر المعتقدات السياسة والإلهية والاجتماعية إلا باكتسابها شكلاً دينيًّا على الدوام ، فتكون به في حِمًى من الجدل . ولو أمكن حمل الجماعات على الإلحاد ، لاكتسب هذا الإلحاد ما في الشعور الديني من شدّة تعصُّب ، ولأضحى في وجوهه الظاهرة ضرباً من العبادة بسرعة!! ولنا في تطور المذهب الوضعي الصغير مثال طريف على ذلك ، ويشابه هذا المذهب العَدَمِيّ (نسبة إلى العدم) الذي روى العلامة دستويفسكي لنا قصّته ، فقد سطعت أنوار العقل على هذا العدمي ذات يوم فحطم صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين هيكل معبده الصغير ، وأطفأ الشموع ... ولم يبدّد من الوقت ثانية ، فأحلّ محلّ الصور المحطّمة كتب بعض الفلاسفة الملحدين كبوخنر ومولشوت ، ثم أشعل الشموع الثانية بورع !!! أجل ، **لقد تحوّل موضوع معتقداته الدينية ، ولكن** أيمكن أن يقال : إن مشاعره الدينية تغيرت؟؟ »[1].

«وقد رأيت أناساً يُبطلون الأديان في العصر الحديث باسم الفلسفة المادية ، فإذا بهم يستعيرون من الدين كل خاصة من خواصه وكل لازمة من لوازمه ، ولايستغنون عما فيه من عنصر الإيمان والاعتقاد التي لا سند لها غير مجرّد التصديق والشعور ، ثم يجرّدونه من قوته التي يبثّها في أعماق النفس - لأنهم اصطنعوه

---

١ - لوبون: روح الجامعات - ترجمة عادل زعيتر ص ٧٠.

اصطناعاً ولم يرجعوا به إلى مصدره الأصيل!! فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية يطلبون من شيعتهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة ، وأن يعتقدوا أنّ الأكوان تنشأ من هذه المادة في دورات متسلسلة ، تنحلّ كل دورة في نهايتها لتعود إلى التركيب في دورة جديدة ، وهكذا دواليك ثم دواليك إلى غير انتهاء . ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم على هذه الأرض متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية ، فإن زالت الطبقات الاجتماعية في هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الأبدي الذي يدوم ما دامت الأرض والسموات وتنتهي إليه أطوار التاريخ - كما تنتهي بيوم القيامة في عقيدة المؤمنين بالأديان ، ولا يكلّف دين من الأديان أتباعه تصديقاً أغرب من هذا التصديق ، ولا تسليماً أتمّ من هذا التسليم !! ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه ، وهو (الرأسمالية) الخبيثة العسراء فكلّ ما في الدنيا من عمل سوء أو فكرة سوء فهو كيد من الشيطان الماكر المريد ، وكل ما فيها من عمل سوء أو فكرة سوء يزول ويحول وتحلّ في مكانه بركات الفلسفة المادية ورضوانها متى سار الأمر إلى ملائكة الرحمة وذهب ذلك الشيطان إلى قرارة الجحيم !!!.. وادَّخروها للزمن كله ، بل للأبد كله ، ولكنهم لم يصطدموا صدمتهم الأولى في الحرب العالمية الأخيرة حتى أفلست عقيدة الأبد ، ولجأوا إلى الوطن يستعيدون مُثُلَه وإلى الديانة يستجدونها ويتمسّحون بها ... وفحوى هذه العبرة البالغة أنّ أسرار العقيدة أعمق وأصدق مما يدور بأوهام منكريها ، وأنّها ذخيرة من القوّة وحوافز الحياة تمدّ الجماعات البشرية بزاد صالح لاتستمدّها من غيرها ، وأنّ هذه الذخيرة (الضرورية) خُلقت لتعمل عملها ولم تُخلق ليعبث بها العابثون ، كلما طاف بأحدهم طائف من الوهم أو طارت برأسه نزعة عارضة ، لا تثبت على امتحان ! ..

ومنذ الحرب العالمية الأولى كثرت في أوربا وأمريكا مجموعات الفصول التي يبسط فيها كاتبوها آراءهم في العقائد والأديان ، ويلخّص كلّ منهم فيها عقيدته

التي استخلصها لنفسه ، وأحسّ أنها تناسب تفكيره وعلمه وشعوره بالعالم الذي يعيش فيه ، وبما يقتضيه أمر الاعتقاد في عصر العلوم (الوضعية) وتجارب الإنسانية الحديثة ... وبعض هؤلاء قد اتخذ له إلها اصطفاه على حسب المثل العليا التي يتمثّل بها الإله ، وبعضهم يدين بعقيدة بشرية أرضية لا محل فيها لما وراء الطبيعة ولا تخرج عن كونها نخبةً من قواعد الأخلاق وبرامج الإصلاح ، وبعضهم يُفسِّر الدين الذي يؤمن به قومه تفسيراً يوائمه ويخالف ما اعتقده قومه من المراسم والعبادات ، وكلّهم في جملة آرائهم ومذاهبهم يدلّون على شيء واحد : وهو أنّ **الإيمان ظاهرة طبيعية** في هذه الحياة (لأنّ الإنسان غير المؤمن إنسان غير طبيعي فيما نُحسُّه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذي يعيش فيه ، فهو الشذوذ وليس هو القاعدة في الحياة الإنسانية وفي الظواهر الطبيعية ، ومن أعجب العجب أن يُقال إنّ الإنسان خُلق في هذا الكون ليستقرّ على إيمان من الوهم المحض أو يسلب القرار!) ...

أمّا عقيدة (الجماعة) فلا مناص فيها من ملاحظة شرائط لا تدعو الضرورة إليها كلها في تلك العقائد الفردية : ومنها أن دين الجماعة لا يخلو من المجاز ، لأنه يوحي إليها بالمغيّبات المحجوبة ويقرِّب إليها المعاني الأبدية التي لا تمتزج بالضمير ولا تستجيش الحس إلا إذا اشتملت على مخيّلاتهم واقترنت بما يعهدونه من المألوفات والمشاهدات . ومنها أنّ دين الجماعة يعمّ الخاصة والعامة والمجتهدين والمقلدين ، ولا يؤدّي غرضه الأسمى إذا قطع فريقاً من هؤلاء عن فريق . ومنها أنّ دين الجماعة لأجيال كثيرة وليس لجيل واحد ، وفي هذه الأجيال الكثيرة يتسع المجال لكثير من المستحدثات في العلم ، وكثير من الغِيَر والأطوار في مبادئ الأخلاق ومشارب الأذواق . وللجماعات البشرية فرص كثيرة لاستحداث العلوم ومتابعة الكشوف والمخترعات – تستطيع أن تأخذ منها ما تشاء إن لم تأخذها من نصوص الدين ، ولكنها لا تستطيع أن تأخذ الدين من غير مصادر الاعتقاد ،

وحسبها منه أنّه يحضّها على التعلّم ، ولا يصدّها عن سبيل المعرفة حين تتاح لها مع الزمن بوسائل البحث والاستطلاع »[1].

فالخبز وحده إذن - على حدّ قول المسيح - ليس يكفي ..

وفرق طبعاً بين أن نقول : الخبز وحده ليس يكفي ، وأن نقول : الخبز ليس بلازم على الإطلاق ...

«... أجابهم يسوع وقال : الحق الحق أقول لكم : أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات ، بل لأنّكم أكلتم من الخبز فشبعتم !! اعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقي ، للحياة الأبدية ، الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هنا الله الآب قد ختمه ... الحق الحق أقول لكم : ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء ، بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء ، لأنّ خبز الله هو النازل من السماء الواجب حياة للعالم . فقال له : يا سيد - أعطنا في كلّ حين هذا الخبز ، فقال يسوع : أنا هو خبز الحياة ، من يقبل إليّ فلا يجوع . ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً ، ولكن قلت لكم إنّكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون!! »(يو ٦ : ٢٦-٣٦).

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن : ١٦] ، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٦٦] ، ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة : ١٩٧].

إنّ التدّين الصحيح يحقّق (للآلة الإنسانية) انتظام السير : فرد متوازن ومجتمع متضامن .. كلّ مؤمن يراقب الله في علاقته بالناس ، ويبتغي الآخرة في طلب الدنيا.

---

١ - العقاد : الفلسفة القرآنية - المقدمة ، الخاتمة .

إنّ الإيمان قضية منطقية ، وحاجة نفسية ، ومصلحة اجتماعية ... أو هو اقتناع ، و راحة ، ونظام .

منطق:

«وأشهر الحجج التي اعتمدت عليها الفلسفة الإلهية ثلاث : برهان الخلق المعروف عند الأوربيين بالبرهان الكوني Cosmological Arguement : وفحواه أنّ المتحركات لابد لها من محرّك لا تجوز عليه الحركة ، وأن الممكنات لابد لها من موجد واجب الوجود ، وإلا لزم التسلسل إلى غير انتهاء . **وبرهان النظام** المعروف عندهم ببرهان الغاية أو القصد Teleological Arguement: وفحواه أنّ نظام العالم يدلّ على إرادة محيطة بما فيها من الأسباب والغايات . والبرهان الثالث **برهان الاستعلاء والاستكمال** المعروف عندهم ببرهان القديس أنسلم - Ontological Arguement Anselm : وفحواه أنّ العقل إذا تصوّر شيئاً عظيماً تصوّر ما هو أعظم منه وإلا تطلّب موجباً للوقوف عند حد من العظمة لا تتعداه ، وكلما عظم شيء فهناك ما هو أعظم منه وأعظم ، حتى تنتهي بالتصوّر إلى العظمة التي لامزيد عليها ، والعظمة التي لامزيد عليها لا تكون مجرّد تصوُّر يقع في الوهم ولا يوجد في الواقع ، لأنّ العظمة الموجودة فوق العظمة الموهومة أو المتصوَّرة ، فالله إذن موجود لأنّه أعظم الموجودات »[1].

وفي القرآن أمثلة لهذه البراهين ...

فبرهان الخلق واضح في قوله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ؟؟ [الطور : ٣٥] .

---

١ - العقاد : الفلسفة القرآنية ص١٠٧ ، ١٠٨ - للتفصيل راجع (الله) أيضاً (طبعة الهلال) ص ١٨٨ - ١٩٧ .

وبرهان النظام أو برهان الغاية أو القصد تلمحه في الآيات : ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك : ٣] ، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦] .

وبرهان الاستعلاء والاستكمال قائم في وصف الله لذاته : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

وفي رأي العقاد أنّ مسألة وجود (وعي) قبل كل شيء : «فالإنسان له وعي يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من (وعي) يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية لأنه متّصل بهذا الوجود بل قائم عليه. والوعي والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعمّ من العقل في إدراكه لأنّه مُستمدٌّ من كيان الإنسان كله : ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنّه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التفصيل والتفسير .

ونحن نخطئ فهم العقل نفسه حين نفهم أنّه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وأنه لايعمل عمله الشامل إلا على طريقة التقسيم المنطقي وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج وإثباتها بالبراهين على النحو المعروف . فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم ، وهو في وجوده ملكةً حيّةً تعمل عملاً حيًّا ولا يتوقف علمها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين ، وهو في وجوده هذا يقول (نعم) ويقول (لا) - ويحق له أن يقولها مجملتين في المسائل المجملة على الخصوص . وقد يخطئ القول في بعض الأشياء ، ولا يضمن الإصابة في كل شيء، ولكن الخطأ ينفي العصمة الكاملة ولاينفي الوجود . فقد يكون العقل المجمل موجوداً عاملاً وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا في

وجوده ولا في صلاحه للتفكير ، لأن التقسيم المنطقي يخطئ أيضاً كما يخطئ العقل المجمل في أحكامه المجملة ولا يقال من أجل ذلك إن التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير . فإذا قالت البداهة العقلية : نعم هناك إله - فهذا القول له قيمة في النظر الإنساني لا تقلّ عن قيمة المنطق والقياس ، لأنها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس إلى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده . وقد كان العقل المجمل أبداً أقرب إلى الإيمان وأقرب إلى قوله (نعم) في البعث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقي أن يقول (لا) قاطعة مانعة في هذا الموضوع» [1] .

وقريب هذا مما انتهى إليه الفيلسوف ديكارت في قولته المشهورة . (مهما شككت فإنني لا أشك في أن لي نفساً تشك) ، (أنا أفكر إذن أنا موجود) !!

من أين تهبّ رياح الشكوك على منطق العقيدة ؟؟

هل العلم التجريبي هو مصدر الاعتراض ؟؟

«من العلماء من عقيدته تقرير وتوكيد ، ومنهم من عقيدته ترجيح ورغبة ، ومنهم من عقيدته استعداد وانتظار ... وحصَّةُ هؤلاء في تأييد العقيدة غير قليلة ، لأنها بمثابة (فتوى علمية) بأن العلوم التي تفرَّغُوا لها وبلغوا مبلغ الثقة فيها لا تُعارض الإيمان في أساسه ، ولاتمنع صاحبها أن يفتح صدره وضميره لعالم الغيب فليس عالم الشهادة عندهم بالعالم الوحيد . ولا نعرف من علماء القرن العشرين من من هو أبعد شوطاً في الاعتقاد من الدكتور ألكس كاريل Alexis Carrel الطبيب المتخصص في بحوث الخلية ونقل الدم وصاحب جائزة نوبل ١٩١٢ - ختم رسالته الصغيرة عن الصلاة والخلاصة أنّ الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحاني له شأن خاص في الحياة ، لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح ... والصلاة على ما نرى ضرورة لا غنى عنها لنمو الإنسان في

---

١ - العقاد : الله (طبعة الهلال) ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

أرفع حالاته ، ولا ينبغي أن ننظر إليها كأنها عمل لا يلجأ إليه غير الضعاف والمتسولين والجبناء - أو كما قال نيشتة : إنها شيء مخجل ، فما الصلاة بأدعى إلى الخجل من شرب الماء والتنفس !!

وإن الإنسان ليحتاج إلى الله حاجته إلى الماء والأكسجين ، وهذا الشعور بالقداسة إلى قرائنه من الشعور بالبصيرة والحاسة الخلقية وذوق الجمال وضياء الفهم هم تمام الازدهار والنضج للشخصية الإنسانية .. ومن العلماء المؤمنين : روبرت بروم Broom عضو الجمعية الملكية الإنجليزية ، الذي سُئل عن عقيدته الدينية باعتباره رجلاً من رجال العلم الحديث فأجاب في فصل خاص لمجموعة Modern Spirit towards philosophy of faith سنة ١٩٥١ : (من نحو عشرين سنة اهتم بعضهم بأن يبحث عن الآراء المادية التي شاعت بين الدوائر العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، هل لا تزال على شيوعها ؟ .... فتبيّن أنّ فئة مدهشة بنسبة عددها إلى سائر أعضاء الجمعية الملكية - قد قررت بأسلوب واضح أنها تؤمن بعالم روحاني وعناية ربانية مهيمنة ، وأنّ كثيراً منهم يعتقدون بقاء الشخصية بعد موت الجسد ، وظهر في امتحان الأسئلة أنّ عدداً كبيراً من الأعضاء لم يحفل بالإفصاح عن رأيه - مما قد يُفهم منه أنّ بعضهم على شك وتردُّد ، وقد يكون الشك والتردّد خطوة في طريق الإيمان) »[1] .

والمادة بكثافتها الغليظة لا تقف حائلاً دون الإيمان بإله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ :

«حدثت في السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث (علمية) غيّرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمون ... عرفوا الكهرب الذي تُحسب

---

١ - راجع مزيداً من هذه الشهادات في فصل (عقائد العلماء) من كتاب العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين.

ذرّة الهيدروجين جبلاً ضخماً بالقياس إليه ، ثم تقدموا في معرفة الكهرب والذرة حتى أفلتت المادة كلها من بين أيديهم ، ولم تبق منها غير حسبة رياضية كانوا (يحسبونها) مثلاً في الدقة والضبط والعصمة من الخلل ، فإذا هي في النهاية حسبة لا يضبطها الحساب إلا على وجه التقريب ! أفلت من المادة كل شيء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل في الثبوت و (الحقيقة) !!

فاللون من الشعاع - والشعاع هزات في الأثير !! والوزن جاذبية - والجاذبية فرض من الفروض !! والجرم نفسه متوقّف على الشحنة الكهربية ، وعلى سرعة الجسم في الحركة ، ونصيبه من الحرارة . والحرارة ما هي ؟ حركة! والحركة في أي شيء ؟ في الأثير ! والأثير ما هو ! فضاء أو كالفضاء ، وكل وصف أطلقته على الفضاء فهو بعد ذلك مطابق لأوصاف الأثير . حتى الصلابة التي تصدم الحسّ أصبحت درجة من درجات القوة تقاس بالحساب ، ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختلال ... وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة أخرى ، فإذا المادة كلها كهارب وذرات ، وإذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعاً كشعاع النور!! هل هذا الشعاع موجات ؟ هل هو جزيئات ؟ قل هذا أو قل ذاك ، فهذا وذاك في ميدان (التجربة) سواء !!

وعاد العلماء التجريبيون إلى القوانين الطبيعية التي تحكم الحرارة والحركة والضوء ، وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات ، فوجدوا لها قانوناً واحداً - وهو الخطأ والاحتمال ... إنّ المادة اليوم لا تصدُّ المفكرين عن عالم الحقائق المجردة ، ولا هم يتخذون من صلابتها وجسامتها شرطاً للحقيقة الثابتة ، **فإن الحقيقة المادية نفسها لا تثبت اليوم بمجرّد الصلابة والجسامة ، ولا تزال ترتدّ إلى أصولها حتى تئُول إلى عدد من الهزات في ميدان مجهول هو ميدان الأثير وميدان الفضاء .** فالمادة في القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرّد بل دخلته ،

وأصبحت في تقدير الثقات عملية رياضية أو نسبة من النسب التي تقاس بمعادلات الحساب» [1].

راحة :

«... أجاب يسوع وقال لها : لو كنت تعلمين عطيّة الله ، ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب – لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيًّا ... كل من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد ، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو٤ : ١٠-١٤) ..

هذه هي الراحة التي تفيض من العقيدة على جنبات النفس ...

إنّ الإيمان بالله ليس مسألة حسابية وحسب ، يكتفى مقرّرها بأن يقول : إنّ الله موجود ، أو إنّ الله واحد ، وتنتهي غايته عند هذا التقرير ... ليس مسألة كل ثمرتها زيادة المعلومات والمعارف الإنسانية عن كائن يسمى (الله) صفاته كيت وكيت!! .. «كان أناس من الحكماء يعرفون الله كأنهم يعرفون حلًّا مقنعاً لمسألة الوجود ، أو كأنهم يعرفون خالقاً للكون ولا يزيدون ... ومما لا ريب فيه أنّ عقيدة التوحيد قد سرت من مصر في صورة من الصور إلى بلاد المشرق ومنها بلاد البحر الأبيض ووادي النهرين ، ومما لا ريب فيه أنها كانت سرّ الخاصة وذوي الرياسة في المحاريب والقصور ...

أما الإله الواحد الذي اقترن بدعوة إبراهيم ، فلم يكن حلّ مسألة ، ولم يكن سرّ أحبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد !

بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهي ، وإليه المرجع والمآب . **كانت مبادئه مسألة حيّة تمتزج بسرائر النفس ، وتنبعث**

---

١ – العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ٤٦ – ٤٨ ، ٥٢.

منها فضائل الخير ، ولا تنزوي عنها زاوية في الكون ولا في ضمير الإنسان . كانت دعوته صرخة تُسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لغزاً يخفي وتتحاجى به العقول ! **كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهي صحبة الخلود الذي لا يعرف الفناء»** [1] .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء : ٧٨ - ٨٢] .

هذا الإيمان الصحيح هو الذي يحقق ما ورد في نداء المسيح : « تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (مت ١١ : ٢٨).

فالإيمان يقي النفس من أن تتبدّد طاقتها في مضطرب الحياة الدنيا ... يعصمها من اليأس الكسير ، كما يعصمها من القوة المغرورة على السواء : «... بالإيمان قهروا ممالك ، صنعوا برّاً ، نالوا مواعيد ، سدُّو أفواه أسود ، أطفأوا قوة النار ، نجوا من حدّ السيف ، تقوّوا من ضعف ، صاروا أشداء في الحرب ، هزموا جيوش غرباء» (عبرانيين ١١ : ٣٣-٣٤) ...

« ونقص البراهين العقلية التي يستدل بها الفلاسفة على وجود الله أن البرهان قوة ترغم العقل على التصديق ، **ولا يأتي الإيمان بإرغام بل بطلب وشوق واجتهاد في التحصيل** ، فإن لم تشعر النفس بمكان الإيمان منها فلا محلّ للبرهان فيها ، وإن شعرت بهذا المكان فالبرهان متمّم لشيء موجود يعاونه ويزيد عليه ... قال الوجودي المتدين كارل جلسبر Karl Jasper بصدد الأوامر المطلقة : (وينبوعها

---

١ - العقاد : أبو الأنبياء ٩، ١٠.

في نفسي بما أنها مساك كياني ، وليس وجود الكائن الأبدي المطلق مسألة علم بل مسألة يقين ، فإنّ العلم المحدود لا يمتد وراء الحدود) »[1] .

فالإيمان إذن إنما هو استجابة لحاجة نفسية : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٣٠] .

وفي رحاب الإيمان يتوافق العقل والوجدان ، ويتوافق الجسد والروح ، ويتوافق الفرد والمجموع ، ويتوافق الإنسان والكون ، ويتوافق العمر المحدود والخلود ، حين تقوم هذه الصلة الروحية العقلية بين الخالق والمخلوق .

ما أصدق المسيح : «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله ، وخسر نفسه»(مت ١٦ : ٢٦ ، مر ٨ : ٣٦ ، لو ٩ : ٢٥) وهو يخسر نفسه إذ يتيه في الدوّامة الكبرى ويفتقد قاعدة الإيمان الثابتة ، فما أسرع أن تميد به الأرض أو تهوى به الريح!!

والإيمان بالله كفيل بنماء الفضائل الأخلاقية ، وحسن إنفاذ الأحكام التشريعية ، لأنّه يملأ على النفس شعابها ، فيجعلها أقوى على حمل تبعات الحق ، وأورع عن المروق من التكاليف والجموح بين الثغرات والتآويل ، وأقدر على إطالة الأنفاس حتى لاتتقطّع في بيداء الحياة الشاسعة - إن أصابت المؤمن سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له.

فالعقيدة تعمّق العلاقات الإنسانية ، وتُضاعف المجهود البشري ، وتزيد القيم الفاضلة ثراء ، وتجعل الدنيا بزينتها وقسوتها معبراً لابدّ من السعي فيه بجدّ إلى حياة النعيم .

---

١ - العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ١٣٧، ١٣٨.

وفي آفاق العقيدة الرحيبة تنطوي المشكلات الصغيرة ، والمُنغِّصات المحدودة ، التي تُفجِّر الرءوس وتغصُّ الحلوق وتُضيِّق الأنفاس ، متى كانت الدنيا للإنسان غاية همّه ، ومبلغ علمه .

«وعقائد القيم الإنسانية تقف بصاحبها دون الغاية الوافية من العقيدة ... لأنها تتركه في الكون كله بغير سند يطمئن إليه ، ولا تجاوز به حدود نوعه ، وهو - أي النوع الإنساني - ضائع كله في الكون ، ما لم يكن لوجوده معنى أصيل مرتبط بالوجود الشامل لجميع الموجودات ... إنّ علاقة الإنسان بالكون أعرق وأوثق وأعمق من كل علاقة بإقليمه أو بعشيرته أو بنوعه ، وليس بالمفهوم أن تترجم نوازعه عن علاقات العشيرة والإقليم والنوع ، ثم تخلو من ترجمة لعلاقته بالوجود كله !! فإن لم تكن العقيدة الدينية هي ترجمة العلاقة الكونية ، فأين توجد هذه الترجمة ؟؟ ... نعم إنّ القيم الإنسانية تؤسس في خلائق الإنسان الإيمان بالواجب ، وإن قيامه بواجبه يبعث فيه الثقة والطمأنينة والعزاء ، وإنّه متى عرف القيم الإنسانية عرف الأحسن والأكمل وأعرض عن القبح والنقيصة ، ومتى اهتدى إلى الواجب بين ما هو حسن وما هو قبيح حُمِد له وتبيّن طريقه في ظلمات المجهول . ولكنه ولا ريب لا يكتفى بهذا الواجب لو علم بما هو أكثر منه وأكبر ، وإنّه لا يستغنى معه عن سند له وسند للنوع الإنساني كله . ولا يجد هذا السند في شيء - كما يجده في عقيدة تشمل الكون وما فيه ، بل تشمل الكون وما وراءه ، وتحيط بالزمن بغير ابتداء ولا انتهاء »[1] .

على جذور العقيدة الضاربة إلى الأعماق ، ثبّت المسيح غراس الأخلاق ونمّى ثمارها ، وربّى أتباعه على أن يفعلوا الخير ابتغاء مرضاة الله وحده وثوابه في أخراه .

---

[1] - العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ١٦٠ - ١٦٢ .

«ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال : طوباكم أيها المساكين لأنّ لكم ملكوت الله ، طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون ، طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون ، طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيّروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الإنسان - افرحوا في ذلك اليوم وتهلّلوا فهو ذا أجركم عظيم في السماء ، لأنّ آباءهم هكذا كانوا يفعلون بالأنبياء ! ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم ، ويل لكم أيها الشباعي لأنكم ستجوعون ، ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون ، ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً لأنّه هكذا كان آباؤهم يفعلون بالأنبياء الكذبة .

لكني أقول لكم أيها السامعون : أحبّوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم . من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضاً ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً . وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه ! وكما تريدون أن يُفعل بكم افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا . وإن أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم ؟ فإن الخطاة يحبون الذين يحبونهم . وإن أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأي فضل لكم ؟ فإنّ الخطاة أيضاً يفعلون هكذا . وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم ؟ فإنّ الخطاة أيضاً يُقرضُون الخطاة لكي يستردّوا منهم المثل . بل أحبُّوا أعدائكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً ، فيكون أجركم عظيماً وتكونوا بني العليّ فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار ، فكونوا رحماء كما أنّ أباكم أيضاً رحيم . ولا تدينوا فلا تُدَانُوا ، لا تقضوا على أحد فلا يُقضى عليكم ، اغفروا يُغفر لكم ، أعطوا تُعطوا » (لو ٦ : ٢٠ - ٣٨) .

هذه شريعة للأخلاق فوق شريعة الواجب ... شريعة تستند إلى أوامر الله وجزائه في عالم الغيب، لا إلى توافق الإنسان والإنسان وتبادلهما المنافع العاجلة في الواقع القريب ...

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ....﴾ [الإنسان: ٧ - ١٣].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ١٩ - ٢٠].

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٤ - ٣٦].

نظام:

والعقيدة لا تجمع شتات النفس في الفرد الواحد فحسب، ولكنها تجمع شتات الناس مجتمعين ...

العقيدة تجمع الطبقات، وتجمع الأقوام، وتجمع الأوطان، ثم هي تجمع الأجيال والأزمان ...

وإلى العقيدة وفلسفتها ترتكز أحكام التشريع ..

فالتشريع يقرّر المساواة : ومن العقيدة تُستمدُّ هذه المساواة في أعمق جذورها ، إذ لا يتميَّزُ على المخلوق إلا الخالق ، وكل العباد سواء أمام الرب المعبود .

والتشريع يقرّر الحريات : والعقيدة لا تجعل حاكماً مقبولاً لذاته - مرضيّ الحكم فيما يُرضي وفيما يُكره إلا الله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، وكل الناس بعد ذلك مختارون لمهامهم ، مسئولون عن التزاماتهم ، يُناقشون الحساب!.

والتشريع يقرر التكافل : والعقيدة تجعل المالك الأصيل لكل النعم هو الله ، وتجعل الناس جميعاً مُطالبين بابتغاء رزقه واقتسام عطائه دون تظالم أو تهاون .

والعقيدة في الله تجعل المؤمن حارساً للتشريع ، يعبد الله بطلب حقه وأداء واجبه على السواء ، وهو إذ يحرس التشريع يحرس عقيدته نفسها - حتى يحجز عن الكبرياء كل متعال بنسب أوطبقة ، وكل متجبر بسلطة ، وكل متطاول بثروة - إذ الله وحده هو الغني القويّ ، والعزيز الجبّار !

والعقيدة في الله على هذا النحو تجمع على الإنسان نفسه وتجمع عليه الحياة !!.

تجعله على وفاق مع عقله ونفسه ، ومصالحه ومطالبه كلها ، كما تجعله على وفاق مع الكون ، وعلى وفاق مع الناس أجمعين - وإذ أسلم وجهه لله رب الناس والأكوان - ربُّ العالمين ، فسلم من اضطراب النزعات واصطراع الأهواء!

«وهذه هي الفتوح التي لانظير لها فيما تحدّث عنه المؤرِّخون من فتوح الحياة الإنسانية منذ أقدم عصورها إلى العصر الحديث . لا نظير لها فيما فتحه الإنسان من هذا العالم حين سخّر النار أو سخّر الحيوان أو سخّر الذرة - فهذه فتوح فيما يملكه الإنسان ، أما تلك الفتوح ففيها ملاك الإنسان كله : فيما يعلمه وفيما لا يعلمه ، وفيما يُبديه وفيما يُخفيه . تلك فتوح غيّرت عالم الإنسان الظاهر وعالمه الباطن ، وليس

قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادة سبقتها - وإن كانت العبادة الفضلى غُنْماً يُغليه من يقتنيه ويفديه بكل ما يعيه ومالا يعيه ! كلا ، بل **هي عبادة فضلى ، وفكر فاضل ونظر جديد إلى الكون وإلى الإنسان وبني نوعه في وحدته وفي اجتماعه . وهي فتوح تُصحِّحُ مقاييس الفكر وتُبَدِّلُ علاقة الإنسان بنفسه وبدنياه ، وتُحسب من أجل ذلك في سجلات العلم ورياضات الخلق وقوانين الاجتماع .**

إن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مُفرَّقة بين الأرباب ، يتسلّط عليها هذا بإرادة ، ويتسلّط عليها غيره بإراده تنقضها .. فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادة الشرك وكفى ، بل هو علم أصحّ ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدقّ وأوفى ، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية - وإن لم تبلغه دعوة الأنبياء .

أما ميزان العدل الإلهي فهو الذي أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة ، وكل ما عداها من دعامة فإنما هي دعائم القوة ممن يقدر عليها سواء اقتدر عليها بسطوته الباطشة أو بتأليب الطوائف والجماعات . **وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم إلى بعض ، ويطلبون المساواة بين أقوى الأقوياء منهم وأضعف الضعفاء ! فإذا ارتفع الميزان إلى اليد الإلهية ، فهذا القوي مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف - ندّان متساويان ، ومخلوقان أمام خالق واحد** : ما زاد من قوة أحدهما فهو من عطاء ذلك الخالق ، وما نقص من قوة الآخر فهو من قضائه ، ومن دواعي رحمته وبلائه ، وإليه المرجع في حسابه أو جزائه . فلا يدخله أحد في حساب غير ذلك الحساب ، ولا يعرضه أحد على ميزان غير ذلك الميزان ... وإن الواقع الذي لا مرية فيه أن الإنسان قد ملك الذرَّة الصغرى فملك من الطبيعة قوتها الكبرى ، وأنه خليق بهذه القوة أن

يضل ويطغى ، ولكن اليقين الحق أنه لن يكبح ذلك الطغيان من نفسه بقوة الطبيعة صغراها وكبراها ، وإنما يكبحه - إذا قُدِّرَ له أن يكبحه ! - بسلطان من ذلك الفتح المبين ... »[1] .

والعقيدة إذ تكون ينبوعاً فوّاراً بالخير ينفجر منه كل مبدأ سليم ، وكل سبيل قويم ، لا تقف عند البدء والإنشاء ، بل هي توالي الإمداد والتجديد والإنماء ...

والعالم الطبيعي شارل داروين - حفيد صاحب مذهب التطور - يشهد للعقيدة في كتابه عن المليون سنة القادمة The Next Million Years فيقول : «إن العقائد لها خاصة أخرى أقوم وأجدر بالالتفات إليها ، وذاك أنها تكفل الدوام للخطط الاجتماعية زمناً أطول من الزمن الذي تتكفّل به أيّةُ فكرة عقلية . وفي التاريخ حالات عديدة تصدّى فيها نخبة من الساسة المستنيرين لوضع سياسة يتوخُّون بها المصلحة العامة ويقفون حياتهم على إنجازها ، وما هو إلا أن ينقضي جيلهم حتى يعقبهم ساسة آخرون ينقضونها إيثاراً لطريقة غيرها من طرق المصلحة الإنسانية ، فلا يطول أجل الخطة القائمة على العقل أكثر من جيل واحد - وهو أمد قصير جدًّا لا يكفي للتغلّب على عقبات المصادفة !! فلو أن خِطّة من الخطط تسنّى لها أن تمتزج بحماسة الإيمان فأصبحت من العقائد الـمُصَدقة ، لقوى الأمل في بقائها نحو عشرة أجيال متعاقبة - وهي برهة كافية للتغلّب على طوارئ المصادفات . وبهذه المثابة تُشارك العقيدة خليّة التناسل في خاصتها التي تحفظ أثرها في البيئة الإنسانية »[2] .

هل ابتعدنا كثيراً عن صحبة المسيح في الأناجيل الأربعة ؟؟؟ ...

---

١ - العقاد : أبو الأنبياء ص ٦ ــ ٨ .

٢ - العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ١٥٦.

لا أظن أنّنا ابتعدنا كثيراً أو قليلاً ، بل نحن في القلب والصميم . وإنما نحاول أن نتبيّن طريق المسيح - فهو طريق دين الله على اختلاف رسله وكتبه ، ونتعرّف العلة في احتمال المسيح - واحتمال رسل الله جميعاً - ما احتملوه . فما كان أحراهم أن يُريحوا ويستريحوا من هذا العناء ، لو كانت قضية العقيدة إثباتاً لوجود إله دون تأثير على تعامل الناس ، وقولاً بعالم آخر دون مساس بالحياة الواقعة !!!

«أنا هو نور العالم ... من يتبعني فلا يمشي في الظلمة ، بل يكون له نور الحياة» (يو ٨ : ١٢) .

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦].